

The Dictionary of Libyan Towns by Sheikh Al-Tahir Al-Zawi and Its Importance in Studying the Islamic History of Libya

Hamza Mohammed Ali Albakoush*

Department of History and Islamic Civilization, Faculty of Arabic Language and Islamic Studies,
Alasmarya Islamic University, Libya

كتاب مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ اللَّيْبِيَّةِ لِلشَّيْخِ الطَّاهِرِ الزَّائِي وَأَهْمِيَّتُهُ فِي دراسة تاريخ ليبيا الإسلامي

حمزة محمد علي البكوش*

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا

*Corresponding author: h.albakoush@asmarya.edu.ly

Received: April 16, 2026

Accepted: May 28, 2026

Published: June 11, 2026

Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (<https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>).

Abstract:

This study examines "the Dictionary of Libyan Towns (Mu'jam Al-Buldan Al-Libiyah) by Sheikh Al-Tahir Al-Zawi and its significance in studying the Islamic history of Libya." The research analyzes the lexical text to uncover the epistemological and documentation methodology that characterizes this unique scholarly achievement, highlighting its features as an integrated geographical and historical encyclopedia. The nature of this source requires a re-reading of its content, as well as deconstructing and analyzing its texts, to understand how the author managed to link the geography and topography of the Libyan land with the course of historical events and successive occurrences upon it. This dictionary represents a cognitive missing link (or a bridge of knowledge) that gathers the scattered history of places and documents their landmarks with an authentic national vision that serves both the reader and the researcher in Libyan history and heritage. The importance of this research lies briefly in highlighting the scientific and cultural value of the dictionary, and demonstrating the extent of its actual contribution to serving Libyan history. Its conclusion culminated in confirming the pioneering status of the dictionary as an indispensable, authentic reference source, and proving the diversity and robustness of the resources upon which, the author relied in constructing the material of his dictionary.

Keywords: The Dictionary of Libyan Towns, Sheikh Al-Tahir Al-Zawi, the Islamic History of Libya.

المُلخَص:

تتناول هذه الدراسة "كتاب مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ اللَّيْبِيَّةِ لِلشَّيْخِ الطَّاهِرِ الزَّائِي وَأَهْمِيَّتُهُ فِي دراسة تاريخ ليبيا الإسلامي"؛ حيث يقف هذا البحث على دراسة المتن المعجمي للكشف عن المنهج المعرفي والتدويني الذي ميز هذا المنجز العلمي الفريد، مبرزاً خصائصه كموسوعة جغرافية وتاريخية متكاملة. إن طبيعة هذا المعجم تقتضي إعادة قراءة محتواه وتفكيك وتحليل نصوصه لمعرفة كيف استطاع المؤلف الربط بين جغرافية وتضاريس الأرض الليبية وبين حركة الحوادث التاريخية والوقائع المتعاقبة عليها؛ إذ يمثل حلقة وصل معرفية تجمع شتات تاريخ المواضع وتوثق معالمها بروية وطنية أصيلة تخدم القارئ والباحث في التاريخ والثرات الليبية. وتبرز أهمية هذا البحث باختصار في تسليط الضوء على القيمة العلمية والثقافية للمعجم، وبيان مدى إسهامه الفعلي في خدمة التاريخ الليبي. وانجلت خاتمته عن تأكيد المكانة الريادية للمعجم كمصدر مرجعي أصيل لا غنى عنه، وإثبات مدى تنوع ومثانة الموارد التي اتكأ عليها المؤلف في تشييد مادة معجمه.

الكَلِمَاتُ الْمِفْتَاحِيَّةُ: معجم البلدان الليبية، الطاهر الزاوي، تاريخ ليبيا الإسلامي.

المقدمة:

إنَّ جغرافية المكان هي المسرح الحيُّ لحركة التاريخ، وفلسفَةُ التدوين الحضاري تقوم في جوهرها على استنتاج الجغرافيا لتكون وعاءً للحدث الزمني؛ ومن هذا المنطلق التكاملي أرسى علماء الأمة المنهج المعجمي الجغرافي، محوّلين رصد المواضيع من وصف جغرافي مجرد إلى سجلٍ نابض بتحوّلات السياسة، ومظاهر العمران، وحركة الإنسان. وعلى الرغم من عراقة هذا الفن في التراث الإسلامي، إلا أنَّ المكتبة الليبية ظلّت لعقود طويلة تشهد فراغاً توثيقياً، تفنّقر فيه إلى مصنّف معجمي يجمع شتات المواضيع ويؤرّخ لمعالم البلاد، حتّى انبرى لهذه المهمة العلمية الجليلة الشيخ المؤرّخ الطاهر الزاوي. وقد نهض هذا المشروع الريادي الموسوعي - معجم البلدان الليبية - في خضمّ ظرف تاريخي عصيب، واكب ويلات الاحتلال الإيطالي ومخاض حركة الجهاد الوطني؛ فكان دافع المؤلف صيانةً للهوية المكانية للقطر الليبي، وتوثيقاً لحواضره، وقراه، وجباله، وصحاريه، وتتبعاً لتدرّجه العمراني والآثري؛ ليغدو هذا المعجم الوثيقة الأولى التي أسست للمدرسة المعجمية التاريخية في ليبيا.

وتتمكّن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على الريادة المصدريّة لمعجم البلدان الليبية، وبيان منهجه التكاملي في ربط جغرافية المواضيع الليبية بتدرّجها الحضاري وتطورها العمراني والبشري عبر مختلف العصور التاريخية. أما عن سبب الاختيار فهو رغبة الباحث في محاولة سدّ النقص الأكاديمي، وفحص المنهج المعجمي للشيخ الزاوي وإبراز أدواته في الربط بين الموقع الجغرافي والحدث التاريخي، وهي زاوية بحثية لم تتلّ حقها من الدراسة والتحليل. وتتمحور إشكالية الدراسة في محاولة الكشف عن طبيعة البناء العلمي لمعجم البلدان الليبية، من خلال طرح تساؤل جوهري حول المنهج الذي اتبعه المؤلف في تصنيف معجمه، وكيفية موازنته بين التوصيف الجغرافي للمواضيع والتوثيق التاريخي لحداثتها، لبيان مدى نجاحه في تقديم مصنّف متكامل يربط الموضوع ببعده الحضاري والزمني. وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز القيمة العلمية لمعجم البلدان الليبية، وبيان مدي أهميته في دراسة تاريخ ليبيا الإسلامي. من خلال إيضاح ملامحه المنهجية، وبيان أثره في توثيق المواضيع والأحداث التاريخية المرتبطة بها. وللوصول إلى أهداف الدراسة، جرى الاعتماد على المنهجين التاريخي والوصفي التحليلي؛ حيث ركّز الباحث على دراسة متن الكتاب وفحص نصوصه وبيان طريقته المنهجية من واقع محتواه ونصوصه الذاتية.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تنتظم في مقدّمة وخمسة محاور وخاتمة؛ أما المقدمة فقد بيّنت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومشكلته، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، و تتبعت في المحور الأول سيرة الطاهر الزاوي وعصره، بينما تطرّقت في المحور الثّاني إلى التعريف بمعجم البلدان الليبية، ووقفت في المحور الثالث على موارد هذا المعجم، وتناولت في المحور الرابع منهج المؤلف في معجمه، لأختم بالمحور الخامس الذي أفردته لبيان أهمية معجم البلدان الليبية في دراسة تاريخ ليبيا الإسلامي، وقد خُتم البحث بخاتمة تضمنت نتيجة هذه الدراسة، ثم دُيّل بقائمة المصادر والمراجع.

المحور الأول: الطاهر الزاوي سيرته وعصره:

تُمثّل المسيرة الحياتية والعلمية للشيخ الفقيه والمؤرخ السياسي الطاهر بن أحمد بن علي الزاوي محركاً أساسياً لفهم منجزه العلمي؛ فالمتملّ في متن معجم البلدان الليبية يدرك أنه ليس مجرد وصف مكاني للمواضع، بل هو مدونة وطنية موسوعية كُتبت بأسلوب مؤرخ ومحقّق مُحكم عاش في قلب المنعطفات التاريخية العاصفة لبلاده، وتأرجحت حياته بين ميادين الجهاد والمنافي القسرية، وساحات المواجهة الفكرية والسياسية، وينعكس هذا التداخل الجلي بين السيرة الذاتية للشيخ وظروف عصره في النقاط الآتية:

النشأة العلمية والتكوين المعرفي:

استقبلت الحياة الطاهر الزاوي عام (1890م) في بلدة الحرشا التابعة لمدينة الزاوية الغربية، وفي هذا الفضاء القروي، حظي الشيخ بتكوين ديني متين في كنف والده، حيث حفظ القرآن الكريم، ثم تدرّج في تحصيل مبادئ العلوم الشرعية واللغوية، على يد ثلّة من مشايخ وعلماء أسرة البشتي، ثم انتقل للدراسة بالأزهر عام (1912م)¹. ورغم أن هذا التحصيل المحلي انقطع بفعل المباغطة الاستعمارية، إلا أنه أورث الشيخ سليقة لغوية فصيحة وحساً بيانياً صارماً، ظهرت آثاره جليّة في مصنّفاته، ومنها معجمه وذلك عبر ملاحظته للتصحيف والتحريف اللفظي الطارئ على التسميات المكانية الليبية، مستنداً إلى جذر لغوي عربي أو محلي أصيل.

رحلة العطاء والإصلاح:

لم يقف الشيخ الزاوي في جبهة المشاهدين المعزولين عن قضايا وطنهم؛ فمع اندلاع الغزو الإيطالي لليبيا عام (1911م)، اندفع نحو ميادين النضال، مشاركاً بجسده وقلمه ولسانه في معارك الدفاع عن وطنه، وبتحفيز من شيخه عبد الرحمن بن عبد الحميد البشتي الذي كان يلهب حماسة كتائب المجاهدين في الميدان². فلم تكن عودته من الأزهر بالقاهرة

1- سمير عبد الرسول العبيدي، الطاهر أحمد الزاوي (1890- 1986م) شيخ المؤرخين الليبيين، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد: 35، 2011 م، ص 208؛ محمد مسعود جبران، الشيخ الطاهر الزاوي ترجمته وآثاره، البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، العدد: 38، 1988 م، ص 47.

2- الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط 4، دار المدار الإسلامي، بيروت، 1004 م، ص 102 - 106.

إلى طرابلس عام (1919م) انكفاءً على مجالس العلم، بل كانت انخراطاً حركياً مستمراً في حركة الجهاد الليبي حتى عام (1923م)³.

وخلال هذه الفترة المعاشية، تحول الشيخ إلى رجل دولة وإصلاح؛ حيث قاد وشارك في وفود وطنية لفض النزاعات وإطفاء الفتن القبلية التي كان يغذيها المحتل، فأصلح بين القبائل الليبية عام (1920م)⁴، وشدّ الرحال ضمن وفد رسمي إلى أجدابيا عام (1922م) للقاء أمير برقة رغبةً في توحيد الكلمة ورص الصفوف، كما قاد وفداً ثالثاً عام (1923م) لحث بعض القبائل على الاشتراك في قتال العدو، وفي سنة (1924م) سافر نحو جالو وجخرة والجغبوب⁵.... إن هذه الرحلات الميدانية الواسعة أكسبت الشيخ الطاهر الزاوي معانئةً ميدانيةً ومعرفةً مباشرةً بالبلدان والمواضع؛ فالقري، والآبار، والمحطات التي ضبط مسافاتها وأبعادها وخصائصها وتركيباتها السكانية في معجمه، لم تكن مجرد أسماء متخيلة اقتبسها من مدونات العصور الإسلامية، بل كانت جغرافيا حية وطأها بقدميه وعاین تقلباتها الاجتماعية في أحلك ظروف البلاد.

المنفي وصون الهوية:

أجبرت الظروف السياسية العاصفة وتمدد الاحتلال الإيطالي الشيخ الزاوي على الهجرة إلى مصر عام (1924م)، لتبدأ رحلة طويلة من النضال عبر الوعي المكتوب وصناعة الوثيقة⁶. فانتظم للدراسة في الأزهر برواق المغاربة ليحصل على شهادة العالمية عام (1938م)، على أيدي أساطين الفقه والحديث⁷.

وخلال هذه الفترة العصيبة صهر الشيخ أدواته المعجمية في أتون العمل الصحافي والسياسي؛ فكتب المقالات السياسية والدينية في صحيفتي "الأخبار" لأمين الراجحي، و"الفتح" لمحي الدين الخطيب، وعقد أوامر نضالية رصينة مع قامات الفكر والسياسة⁸، وكان لكتابات وأرائه السياسية أثر كبير لدى الليبيين في المهجر، ولدى الشعوب العربية⁹. وتتويجاً لرؤيته الاستراتيجية حول وحدة القطر الليبي في مواجهة مشاريع التقسيم الاستعمارية؛ أسس مع رجالات الهجرة اللجنة الطرابلسية في أكتوبر 1943م¹⁰، وقد صاغ أدبياتها برؤية جيو سياسية متقدمة تنادي باعتبار القطر الليبي وحدة جغرافية وسياسية واحدة لا تتجزأ من حدود مصر إلى تونس ومن المتوسط إلى بلاد السودان، ومناهضة الاستعمار، والمطالبة بالاستقلال التام والوحدة الشاملة للأقاليم الليبية¹¹.

هذه الخبرة النضالية؛ مضافاً إليها عمله الطويل كمصحح ومحقق للكتب والجرائد في المطابع المصرية كمطبعة عيسى الحلبي، وبوزارة الأوقاف عقب نيله الجنسية المصرية عام (1940م)، وتدرسه بالمدينة المنورة (1955-1957م)؛ كل ذلك صقل لديه ملكة المحقق الصارم الذي لا يقبل النصوص على حالها. وتجلت حيطته النقدية عندما أصدر كتابه المرجعي عمر المختار باسم مستعار تفادياً لبطش السلطات الإنجليزية¹².

العودة والصدام مع السلطة الحاكمة:

أمضى الشيخ في مهجره بمصر زهاء 43 عاماً (1924 - 1967 م)، عانى خلالها من مرارة المنع من دخول وطنه؛ فلم يزره طوال هذه العقود إلا مرتين عقب اعتراف الأمم المتحدة بالاستقلال الأولى عام (1950م)، والثانية عام (1964م)، حيث كانت السلطات الملكية ترفض السماح له بالإقامة الدائمة وتأمره بمغادرة البلاد فور انتهاء المدة المحددة¹³.

ولم تنفك عنه هذه الأغلال إلا بعد حصوله على إقامة خاصة عام (1967م) بوساطة من السيد فتحي الخوجة، تلتها عودته النهائية واستردادته لجنسيته الليبية والإقامة الدائمة (1969م)¹⁴.

3- جمعة محمود الزريقي، جهود اللجنة الطرابلسية في مصر من خلال المجاهدين الفيتوري عمر السويحلي والطاهر أحمد الزاوي، مجلة الشهيد، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، العدد: 34، 2013 م، ص 75 - 77.

4- الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال، 403 - 404.

5- الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، منشورات دار مكتبة النور، طرابلس ليبيا، 1968، ص 605؛ سمير العبيدي، الطاهر الزاوي، ص 206.

6- عز الدين عبد السلام العالم، دور الشيخ الطاهر الزاوي في النشاطات السياسية الوطنية وصداها في آثاره العلمية 1911 - 1986 م، مجلة البحوث التاريخية، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، المجلد: 35، العدد: 2، 2013 م، ص 63.

7- سمير العبيدي، الطاهر الزاوي، ص 208.

8- عز الدين العالم، دور الشيخ الطاهر الزاوي، ص 64.

9- لمزيد من التفاصيل ينظر: مصطفى حامد أرحومة، أثر كتابات الزاوي في المهاجرين الليبيين إلى تونس ودورهم في حركة المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي لليبيا 1911-1932 م، مجلة الشهيد، العدد: 22، 2002م، ص 139 وما بعدها.

10- عز الدين العالم، دور الشيخ الطاهر الزاوي، ص 66 - 67.

11- أحمد زواوي، رشيد مباد، الطاهر الزاوي وإسهاماته في كتابة تاريخ طرابلس الغرب، "مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج 17، عدد: خاص، جانفي 2022م، ص 866.

12- أحمد زواوي، رشيد مباد، الطاهر الزاوي وإسهاماته، ص 866 - 867.

13- محمد مسعود جبران، الشيخ الطاهر الزاوي، ص 57.

14- أحمد زواوي، رشيد مباد، الطاهر الزاوي وإسهاماته، ص 866 - 867.

وفي عام (1970م)، تقلد الشيخ الطاهر الزاوي منصب مفتي الديار الليبية، لتبدأ محطة جديدة من جهاده الفكري المعاش؛ إذ لم يكن فقيهاً يهادن السلطة الحاكمة أو يداهنها على حساب ثوابت الشريعة، حيث عارض بقوة كافة القرارات والتشريعات التي تخالف الشريعة الإسلامية، وأصدر فتاواه الشهيرة التي تُحرم التعامل مع البنوك الربوية¹⁵.... هذه المواقف الصلبة دفعته لترك منصبه في دار الإفتاء (1983م)، ولزم بيته حتى وافاه الأجل المحتوم في (1986/3/5م) عن عمر ناهز الخامسة والتسعين عاماً¹⁶، تاركاً وراءه ثروة علمية فقهية و تاريخية ولغوية ومعجمية نابضة ما بين تأليف و تحقيق؛ أهمها¹⁷: (معجم البلدان الليبية، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ولاية طرابلس، جهاد الليبيين في ديار الهجرة، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، التذكارات لابن غلبون " تحقيق"، ترتيب القاموس، مختار القاموس، التشكول للعالمى " تحقيق"، مختصر خليل " تحقيق"، النهاية في غريب الحديث لابن الاثير " تحقيق بالاشتراك"، الضوء المنير المقتبس في مذهب الامام مالك للفطيسي " تحقيق"، مجموعة فتاوى).

المحور الثاني: التعريف بمعجم البلدان الليبية:

لا يمكن فصل ولادة كتاب معجم البلدان الليبية عن سياقه الزمني المعقد؛ فالكتاب لم يكن مجرد استجابة لتurf فكري أو تجميع مكتبي، بل نبع من مخاض جغرافي وطني تاريخي¹⁸، توطره بواعث علمية ومنهجية دقيقة. ويأتي في مقدمة هذه البواعث: الجهد الرحلي الاستقصائي الذي بذله الشيخ عبر تنقلاته المبكرة في النصف الأول من القرن العشرين ما بين القبائل الليبية ومختلف المدن والأقاليم، مما مكّنه من تسجيل حزمة واسعة من الملاحظات الحية والمعانيات الميدانية على أرض الواقع، وأشار الى ذلك في مقدمة كتابه فقال: " وقد أتاحت لي فرصة وجودي في ليبيا ... أن أتجول فيها غربا وشرقا وجنوبا في رحلات كثيرة، وأن أشاهد كثيرا من أوديتها ورُباها وجبالها وسُهلها، عامرها وغامرها... مما جعلني أفكر في كتابة معجم للبلدان الليبية¹⁹ ".

وقد اقترن هذا الجهد الميداني برصد الشيخ لإشكالية معرفية مزدوجة قد تواجه القارئ و الباحث؛ تتمثل أولاً في شتات المادة الجغرافية المحلية وتفرقها في أمهات المصادر العربية والأجنبية القديمة والحديثة على نحو يعسر الوقوف عليه، وثانياً ظهور وتطور مدن و تركزات جديدة من المواضيع الجغرافية في ليبيا، وأشار إلى ذلك قائلاً: " فإن كثيراً من المؤرخين، وأصحاب الرحلات والجغرافيين - قديماً وحديثاً - ذكروا بعض البلدان الليبية مفرقة في كتب عربية وإفريقية، يصعب على كثير من المواطنين معرفتها، خصوصاً في العصور الأخيرة، حيث أنشئت قرى جديدة، واستحالت بعض القرى إلى مدن، واستبحر عمران المدن، واتسع محيطها²⁰ ".

وهكذا لم تقف رؤية الزاوي عند تدارك هذا الشتات المصدري للمادة، بل تعمقت لتواكب التحولات الحركية والتطور العمراني والسكاني الذي طرأ على جغرافية البلاد - الديموغرافية²¹ - في العصور الأخيرة؛ حيث تتنوع بدقة تحول المستوطنات البدوية والقرى الصغيرة إلى مدن وحواضر. وما رافق ذلك من اتساع المحيط العمراني وتبدل الأسماء وتحور دلالاتها، فجاء معجمه مرتب على حروف المعجم ليعيد ضبط الهوية الطبوغرافية للبلاد، ويثبت بربرية وعروبة وإسلامية أسمائها في مواجهة محاولات الطمس الاستعماري، مؤصلاً بذلك لبداية الجغرافيا التاريخية الوطنية المحققة²².

وأما من حيث الهيكل البنوي والمحتوى الموضوعي للمصنّف، فقد أقام الزاوي معجمه على نظام التوبوغرافيا الألفبائي، وهو خيار منهجي يسهل على الباحثين تتبع المواضيع الجغرافية دون عناء²³.

ولم يختزل الشيخ مادة المعجم على المدن الليبية النابضة بالحياة فحسب، بل اتسمت محتويات المعجم بالشمولية والاستقصاء؛ حيث استوعبت مادته تفاصيل الجغرافيا الليبية بكافة تجلياتها؛ من مدن، وقرى ناشئة، ومساجد، وآثار تاريخية، وموانئ ساحلية، ووحدات صحراوية، فضلاً عن الجبال، والأبار، والأودية، والزوايا، وغيرها²⁴.

وقد ضمّن المؤلف كل مادة معجمية بمادة علمية مكثفة تجمع بين الحد الجغرافي من جهة، والحدث التاريخي المرتبط بها من جهة أخرى، ليتجاوز الكتاب وظيفته القاموسية الجافة ويتحول إلى موسوعة جغرافية وتاريخية وحضارية مصغرة تختزل ذاكرة المكان الليبي²⁵.

وهكذا تتجسد القيمة التقييمية التراكمية لهذا المنجز في كونه يُمثّل وثيقة تاريخية وجغرافية مرجعية أساسية، تعكس نضوج المدرسة التاريخية الليبية الحديثة وقدرتها على إنتاج مدونات وموسوعات وطنية مستقلة.

15- عز الدين العالم، دور الشيخ الطاهر الزاوي، ص 81 - 82.

16-

17- محمود مسعود جبران، الشيخ الطاهر الزاوي، ص 58 وما بعدها.

18- طبوغرافيا وطنية تاريخية، ونقصد بها تتبع تاريخ المكان الليبي، أي كيف يسجل الشيخ اسم الموضع الجغرافي ثم يربطه بالأحداث التاريخية التي وقعت عليه.

19- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 5- 6.

20- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 5.

21- الديموغرافية: نقصد بها هنا رصد الزاوي لحركة السكان وتجمعهم، وكيف أن الناس وتجمعهم حوّل بعض البوادي والقرى الصغيرة إلى تجمعات كبيرة ومدن نابضة بالحياة.

22- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 6 - 8.

23- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 8 - 9.

24- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 7.

25- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 7.

فالمعجم، بوضعه الحالي المعتمد في هذه الدراسة، لا يقف عند حدود التوصيف الجغرافي الجامد، بل يمنح الباحثين مادة جغرافية وتاريخية وغيرها، تفكك جغرافيا القطر الليبي عبر متن معجمي موحد، مما يجعله مورد رئيسي لا غنى عنه لاستنتاج النصوص والوقوف على المعالم الحضارية والإسلامية للبلاد من خلال رؤية وطنية²⁶.

ثالثاً: موارد معجم البلدان الليبية:

تتسم البنية المصدرية لكتاب معجم البلدان الليبية بالتنوع والعمق التراكمي، حيث تدرج الشيخ الزاوي في استقرار موارد معجمه بناءً على تسلسلٍ منهجي وزمني دقيق، ينطلق بالكلية من الحاضنة التراثية الإسلامية، والمحلية الوطنية. وقد تشكلت هذه البنية من ثلاثة موارد أساسية متكاملة؛ تمثلت أولاً في الاتكاء على مصنفات وموسوعات الجغرافيا التاريخية الإسلامية وكتب التاريخ الإسلامي، ليعقبها في المقام الثاني الاعتماد على مصنفات الرحالة المتأخرين²⁷ وكتب التاريخ المحلي، ثم توج الشيخ هذه الموارد بركيزة ثالثة أساسية وهي المشاهدة الميدانية والرواية الشفهية التي اتخذ منها مصفاة نقدية حية لمعينة الواقع ومطابقته بالمنقول²⁸.

وتأسيساً على هذا الترتيب المنهجي، يتربع المورد الأول والمتمثل في مدونات الجغرافيا ومصادر التاريخ الإسلامي كأولى الركائز الأساسية التي انطلق منها الشيخ الزاوي لجمع الشتات المصدرية للمادة الجغرافية والتاريخية للأقاليم الليبية. وحين نؤمن النظر في هذه المصادر المتقدمة والتي تأتي في طليعتها مصادر الجغرافيا الإسلامية والرحلات كمعجم البلدان لياقوت الحموي (ت: 626 هـ / 1229 م)، ومعجم ما استعجم للبكري (ت: 487 هـ / 1094 م)، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (ت: 900 هـ / 1495 م)، ونزهة المشتاق في اختراق الافاق للإدريسي (ت: 560 هـ / 1165 م)²⁹، وتاريخ العبر لابن خلدون (ت: 808 هـ / 1406 م) نجد أن الشيخ الزاوي لم يتعاط مع هذا الحشد التراثي تعاطي الناقل المستسلم، بل أخضعه لحوصلة علمية نقدية تتوخى استخلاص الأصول الجغرافية والتاريخية للبلاد. وتتجلى أبهى صور هذا التأثير التراثي وأعظمها أثراً في وقوف الشيخ الزاوي عند مصنف معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت الحموي؛ إذ لم يقتصر توظيفه له على استقاء المادة العلمية فحسب، بل سار الشيخ الزاوي على نهجه المنهجي، واستلهمه في هندسة بناء معجمه وعنوانه؛ فكما وسم ياقوت كتابه بمعجم البلدان جامعاً فيه جغرافية العالم الإسلامي، اقتفى الزاوي أثره وعنون معجمه باسم معجم البلدان الليبية محصصاً ومؤطراً لجغرافية وطنه.

ولم يقف التأثير عند عتبة العنوان، بل سرى إلى نفس الطريقة التصنيفية تقريباً، حيث تبنى الزاوي نظام التوبيخ الألفبائي، فضلاً عن محاكاته في ربط الحد الجغرافي للموضع بالحدث التاريخي، فضلاً عن التراجم والنسب العلمية، مما جعل معجم البلدان للزاوي صورة مصغرة لمعجم ياقوت الحموي مع اختلاف الزمان والمكان.

وبصفة عامة؛ تمثلت قواسم استفادة الشيخ من هذا الرصيد المصدرية المتقدم بجانب ياقوت في اتخاذ تلك المدونات منطلقاً بنويواً لاستخراج الأصول التاريخية للمواضع، وتتبع خطط الحواضر وتغورها الساحلية، فضلاً عن استقاء التوصيفات العمرانية، وضبط شبكة المسالك ومقارنتها بالواقع المعاصر، وتتبع الجذور الأولى للتوزيع الديموغرافي السكاني واستقرار القبائل في مختلف الأقاليم الليبية³⁰.

وفي المقام الثاني، انفتح الرصيد المصدرية للمعجم على كتب ومصنفات الرحالة المتأخرين والمدونات التاريخية والبلدانية المحلية التي عاصرت ورصدت جغرافية وتاريخ القطر الليبي وتحولاته الحركية في العصور الحديثة. ويمتاز هذا الرافد بكونه يقدم مادة علمية أكثر قرباً من واقع المراكز العمرانية الليبية وتوزيعها القبلي والاجتماعي.

وقد اتكأ الشيخ الزاوي في هذا المحور على ذخيرة محلية ومغربية رصينة، تأتي في طليعتها³¹: رحلة التجاني المتوفي (721 هـ / 1320 م)، ورحلة العياشي المتوفي: (1090 هـ / 1679 م) والمعروفة بالرحلة العياشية أو ماء الموائد، والرحلة الناصرية لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت: 1121 هـ / 1710 م)، وموارد التاريخ المحلي ككتاب "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار" لمحمد بن خليل بن غليون (ت: 1150 هـ تقريباً)، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لمحمد النائب الأنصاري (ت: 1336 هـ / 1918 م)، وغيرها من الكتب التي رصدت تبدل أحوال المدن والبلدات.

وتمثلت استفادة الشيخ من هذه الموارد المتأخرة في تتبع الحركة التاريخية المستجدة للمواضع، والوقوف على أثر الجهود السياسية المتأخرة (الفترة العثمانية) على طوبوغرافيا البلاد، ورصد البنية الإدارية للمدن والقرى والموانئ وحتى المساجد والزوايا والمدارس ذات الصبغة العلمية والاجتماعية التي نشأت في هذه الفترات.

وقد أتاح هذا الرافد المحلي عقد مطابقة ونقد للمنقول التراثي القديم عبر نصوص مؤرخين عاينوا الأرض والناس في فترات أقرب زمنياً لعصره، مما مكنه من توثيق استمرارية الهوية المحلية والإسلامية والعروبية للمكان وتطور حركته السياسية والعمرانية والاجتماعية.

26- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 8.

27- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 8.

28- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 8، 9.

29- ينظر قائمة مراجع معجم البلدان الليبية ص 289-290.

30- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 7 - 9؛ أحمد زاوي، رشيد مباد، الطاهر الزاوي واسهاماته، ص 874 - 875.

31- ينظر قائمة مراجع معجم البلدان الليبية ص 289-290.

ولم يقف الشيخ الطاهر أحمد الزاوي عند حدود المنقول والمكتوب بل توجّ بنيت المنهجية بالركيزة الثالثة؛ وهي المعاينة المباشرة والمشاهدة الحية التي حصلها بنفسه عبر رحلاته وتنقلاته الواسعة، معضدة بالمادة الاستقصائية المأخوذة من الرواية الشفوية التي جمعها من أفواه العلماء وأعيان القبائل، وسكان المناطق على امتداد الأراضي الليبية³². وقد شكلت هذه الأداة الميدانية لدى الزاوي مصفاة علمية ومعيّاراً حاسماً يُقاس عليه مدى مطابقة النصوص المكتوبة للواقع الطبوغرافي الحقيقي؛ فمن خلالها تمكّن من فض النزاعات اللفظية بين الأقدمين، وتصويب التصحيف الذي طال أسماء المواضع في بطون الكتب، وتحديد الأبعاد والمسافات بدقة واقعية بديلة عن الحسابات التقديرية القديمة. كما أتاحت له المعاينة الحية توثيق التحولات الحركية للعمران، فرصد نشوء القرى وتطور البوادي وتحولها إلى حواضر نابضة بالحياة الاجتماعية والإدارية، وتوسع المدن، مما جعل من الرواية الشفوية الموثقة والمشاهدة العينية الضامن الأكبر لأصالة المعجم وواقعيته.

رابعاً: منهج المؤلف في معجمه:

يتجاوز كتاب معجم البلدان الليبية النطاق التقليدي للمعاجم الجغرافية المحفوفة برصد الإحداثيات وتحديد المواقع الصامتة؛ إذ لم يشأ المؤلف لعمله أن يقف عند حدود الوصف الجغرافي للمكان، بل سعى بوعي علمي إلى بعث الحياة في جغرافية المكان عبر تطعيمها بالمادة التاريخية والحضارية. ومن هذا المنطلق؛ لم يعد الموضع الجغرافي مجرد حيز مكاني، بل غدا وعاءً تتصهر فيه الشواهد الأثرية، والحوادث الزمنية، ومآثر الحضارات المتعاقبة التي مرت بتلك البلدان. والكتاب وإن تزيّ بزَيّ المعاجم المكانية، إلا أنه يستعير أدوات التدوين التاريخي ليوفر للقارئ مادة موسوعية متكاملة تضاعف من قيمته المرجعية؛ فالخبر التاريخي هنا لا يُسرد لذاته، وإنما يُستدعى بصفته امتداداً طبيعياً وشاهداً حياً على عراقة المكان وتطوره. وقد أسس الشيخ الزاوي انتقائه للمادة التاريخية بناءً على هذا التلازم الطردي بين الجغرافيا والتاريخ، فجاء مثته غزيراً بالمعطيات، متنوعاً في رواياته، ممتداً عبر العصور؛ حيث يربط في نسق واحد بين جذور الماضي السحيق للمدن الليبية، وبين تاريخها الحديث والمعاصر الذي عاين المؤلف فصوله وشارك في صياغة أحداثه، وتتجلى هذه الرؤية المنهجية بكافة أبعادها من خلال النقاط الآتية:

مقدمة المعجم وآلية التنظيم الأبجدي:

تُمثل مقدمة كتاب معجم البلدان الليبية العتبة المنهجية الأولى الذي أفصح من خلالها الشيخ الزاوي عن فلسفته التصنيفية وخلفيات تأليفه؛ فالشيخ لم يجعل مقدمته مجرد استهلال إنشائي، بل جعلها بمثابة بيان علمي يبرر فيه غاياته الوطنية والمعرفية في رسم خارطة طبوغرافية دقيقة لبلاده. فانتهج في بناء معجمه سباقاً هيكلياً يقوم على نظام الترتيب الألفبائي كما سبق الإشارة إلى ذلك، حيث يعتمد الشيخ إلى تجريد اسم الموضع من أَل التعريف والزوائد، ثم يرتبه ترتيباً ألفبائياً دقيقاً بناءً على الحرف الأول فالذي يليه؛ لتسهيل رصد الفائدة وتيسير سبل الوصول إلى المعلومة الجغرافية من قِبَل الباحثين والقراء³³.

وتظهر براعة المؤلف التنظيمية في عدم اكتفائه بسرد الحواضر والمدن الكبرى، بل أخضع حتى الأماكن الصغيرة والنائية والتاريخية والأودية والجبال والآبار المنعزلة ذات الدلالة التاريخية أو الجهادية لنفس النظام الأبجدي الصارم، مما جعل المعجم شبكة مكانية متكاملة مستوعبة لكل شبر من الأرض الليبية، تمنع تداخل الأسماء المتشابهة وتكفل للقارئ دقة الانتقال وسرعة الاستدلال في نسق مرجعي منظم وخالي من العشوائية.

وضوح الأسلوب وعفوية الطرح:

يتجلى منهج الشيخ الزاوي في حرصه الشديد على صياغة مادة المعجم بأسلوب يتسم بالسهولة والوضوح والبعد التام عن الغموض أو التعقيد اللغوي؛ فالشيخ لم يكن يتكلف المحسنات البديعية أو الألفاظ المهجورة التي قد تعيق القارئ عن تحصيل المعلومة الجغرافية بسرعة ويسر. فجاء أسلوبه سهلاً ممتنعاً، قريباً من عفوية الباحث الميداني الذي يخاطب جميع المستويات العلمية من طلاب وباحثين وقراء عاميين، دون أن يخلّ هذا التبسيط واليسر بالرصانة العلمية والضبط اللغوي، مما جعل لغة المعجم أداة طيعة ومباشرة لنقل المعرفة بسهولة ويسر.

التأصيل اللغوي والاشتقاق وتفسير التسميات:

لم يتوقف المؤلف عند المعنى الظاهر للتسمية الجغرافية، بل يتجاوزها إلى تفكيك المادة وتشريحها من خلال البحث في سبب التسمية وإرجاعها إلى أصلها وجذورها اللغوي والتاريخي، دون الانكفاء على قالب لغوي واحد؛ فالشيخ كان يدرك التنوع الثقافي والتاريخي الممتد للأقاليم الليبية، ولذلك حرص على تفسير التسميات بموضوعية، مرجعاً كل اسم موضع إلى سياقه الذي نبع منه، سواء كانت تلك التسمية محلية، أو ذات أصول عربية، أو كانت ألفاظاً دخيلة وفدت من لغات أخرى عبر الحقب التاريخية المتعاقبة على البلاد.

وبجته في تفسير سبب إطلاق هذا الاسم على تلك البقعة بالذات، رابطاً ذلك إما بالصفات الطبيعية والتكوينية للمكان، أو نسبة إلى حدث تاريخي، أو علم، أو قبيلة استقرت فيه، كما يعمد إلى ضبط بنية الكلمة ضبطاً دقيقاً بذكر الحركات والتنبيه على الحروف المشددة أو الممدودة، لتقويم ما دخله التحريف، أو التصحيف، أو الإمالة، بفعل اللهجات واللسان الدارج،

32- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 5 - 9.

33- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 8، 9.

مبيناً الفروق اللفظية بدقة تامة تكفل صيانة أسماء الأماكن من التغيير والتشويه البيوي، كما هو الحال في حديثه عن زليتن وأصل تسميتها³⁴، ورؤاغة (رؤاغة)³⁵، وبنغازي (بني غازي)³⁶، حيث ردّ تباين الألفاظ فيها وتأثيرات اللسان الدارج. **المعاينة الميدانية والاستناد للمجتمع المحلي:**

من أشد الملامح تميزاً في منهج الشيخ الزاوي دقته البالغة في ضبط المواقع الجغرافية وتحديد أبعادها؛ فهو يبتعد تماماً عن التخمين أو الإبهام. ويعتمد في هذا الضبط على زاويتين متكاملتين: الأولى هي المعاينة الميدانية والمشاهدة التي خبرها بنفسه أثناء تنقله بين شرق البلاد وغربها وجنوبها، والزاوية الثانية هي الاعتماد المباشر والاستناد إلى السكان المحليين سواء كانوا من العلماء أو من العامة.

وكان الشيخ يسمع اللفظ ونطق أسماء المواضع من أفواه أصحاب الأرض أنفسهم ليتأكد من سلامته، ويستفسر منهم عن المسافات والحدود الفاصلة بين البلدات. ويقوم الزاوي بتحديد المواضع جغرافياً عبر أبعاد ومسافات دقيقة يربطها بالحوضر والمدن الكبرى المحيطة بها (كان يحدد الموضع بذكر كم يبعد ميلاً أو متراً أو مسيرة يوم عن طرابلس، أو بنغازي، أو غريان...)، مع توضيح الجهات الأصلية الأربع.

ومن خلال هذا المنهج الميداني الاستقصائي، تمكن الشيخ من تصحيح أخطاء من سبقه، واضعاً أمام القاري والباحث معطيات جغرافية دقيقة قائمة على المعاينة والتوثيق المحلي المحقق.

التدرج الزمني للتاريخ الحضاري وتتبع التطور العمراني:

إن السمة البارزة التي تُخرج معجم الشيخ الطاهر الزاوي من جمود المقررات الجغرافية الجافة هو حرصه على ذكر الجانب التاريخي والحضاري للمكان، ولكن وفق آلية منهجية واعية ومنضبطة؛ فالشيخ لا يذكر المعلومات التاريخية اعتباطاً أو دفعة واحدة لكل المواضع، بل يسردها باختصار مركز ومحكم للمواضع بحسب أهميتها التاريخية والحضارية. ويتجلى نبوغ الشيخ في اتباعه مساراً زمنياً تصاعدياً صارماً في السرد، حيث يبدأ من الأقدم تاريخياً إلى الأحدث؛ فيذكر أولاً متى أسست المدينة أو الموضع في العصور القديمة أو الإسلامية الأولى، ثم ينتبغ كيف تطورت حضارياً عبر العصور المتعاقبة وصولاً إلى تاريخها المعاش.

وفي سياق هذا الاختصار غير المخل، برع الشيخ في رصد تمدد البنية التحتية للمدن، متتبّعاً بدقة كيف تطور البناء للمدينة وكيف توسعت عمرانياً ومكانياً؛ فيشرح للقارئ ما إذا كان هذا التوسع قد تم في نفس المركز الجغرافي الأصلي للمدينة من خلال تكثيف البناء، أم أن المدينة قد زادت وامتدت في اتجاهات أخرى جديدة، كأن يذكر امتداد عمرانها وزحفه نحو الشرق أو الغرب أو الشمال بفعل العوامل الاقتصادية أو الديموغرافية والسياسية المعاصرة، كما قد يربط هذا السرد التاريخي الحضاري المختصر بأهم الأحداث وأشهرها، كالإشارة مثلاً إلى المعارك والثورات التي دارت على تلك الأرض، والإشارة أو الترجمة المقتضبة جداً للأعلام والفقهاء الذين تُسبوا إلى هذا الموضع، ليقدم لوحة ديناميكية متطورة عن نمو المكان وانتقاله من الأقدم إلى الأحدث دون تطويل أو حشو أو استطراد ممل، ولعل حديثه عن مدينة طرابلس - أطرابلس³⁷، - ومدينة سرت³⁸، ومدينة بنغازي³⁹، يجسد هذا المنهج بوضوح.

آليات التعامل مع الموارد والنقد والترجيح:

يعكس المنهج التحليلي للشيخ الزاوي عقلية المحقق الصارم المتمرس بآليات البحث المقارن؛ ويتضح ذلك بجلاء في كيفية الاستفادة من الموارد وتعامله معها. فالشيخ لم يكن ناقلاً تقليدياً أو حاطب ليل يجمع الروايات دون تمحيص، بل كان يضع موارده ومصادره المتنوعة - سواء من كتب البلدان والرحالة المسلمين الأقدمين أو من كتب المتأخرين أو حتى الروايات الشفهية - تحت مجهر الفحص والموازنة والنقد، وتتجلى قوته المنهجية في وظيفتي النقد والترجيح؛ فإذا وجد تضارباً بين نصوص الأقدمين، أو لاحظ وهماً في مدونة أحد الجغرافيين، يعمد فوراً إلى محاكمتها ومقابلتها بالشواهد القائمة والواقعية المعاشة، وبما ثبت لديه بالمعاينة الميدانية أو الرواية الشفهية المتواترة، ليرجح بعد ذلك الرواية الأصح الأقرب للواقع من خلال أدلة جغرافية وتاريخية وعلمية منطقية وواضحة، مع تجاوز الروايات الضعيفة التي لا يسندها واقع الحال.

وهذا مسلكٌ يتضح جلياً على سبيل المثال عند حديثه عن سُوَيْقَة ابن مذكور، إذ لم يكتف بإيراد ما سطرته المصادر بل عمد إلى محاكمة الروايات وتحليلها، مستنداً في ترجيحه إلى معطيات ميدانية تُعززها مشاهداته، ومدفوعة بما سمعه وتلقاه مشافهةً من الشيخ أحمد الصاري، الذي يعد من علماء البلد العارفين بجغرافيتها وتاريخها؛ ما يمنح ترجيح الزاوي بعداً نقدياً يزواج فيه بين النقل والتحقيق العياني⁴⁰.

34- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 170.

35- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 175 - 176.

36- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 63 - 64.

37- ينظر: الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 23 وما بعدها.

38- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 187 - 191.

39- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 63 - 64.

40- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 199 - 200.

الإيجاز والحياد والموضوعية:

تتكامل أركان المنهج عند الشيخ الطاهر الزاوي بظهور سمات أسلوبية رفيعة طبعت متن الكتاب وجعلته نموذجاً يُحتذى به في التصنيف المعجمي؛ ومن أبرز هذه السمات سمة الإيجاز؛ حيث صاغ مواد المعجم بعبارات مركزة ومكثفة وموجزة، تفي بالغرض العلمي للباحث وتمنحه اللب والجوهر الجغرافي والتاريخي للموضع دون سرد ممل أو حشو مستهلك، وإذا استطراد فيقدر ما تملبه الضرورة التوثيقية والمنفعة المعرفية فقط.

ويرافق هذا الإيجاز، التزام صارم وجاد بالحياد والموضوعية العلمية والنزاهة الفكرية في عرض الحقائق؛ فالشيخ الطاهر الزاوي برغم مواقفه السياسية والنضالية ومحنه الطويلة في المنافي المعاشة والصدامات الفكرية التي واجهها طوال حياته إلا أنه يتجرد في معجمه لخدمة العلم الخالص. فيعرض الروايات التاريخية، والحدود الطبوغرافية، والتغييرات السكانية بنقش علمي منصف وموضوعي، متجنباً إقحام أهوائه أو خصوماته السياسية، ومبتعداً عن إصدار الأحكام الانفعالية المسبقة، مما منح معجم البلدان الليبية ريادة مطلقة، وتوثيقية علمية عالية، وجعله ركيزة لا غنى عنها للباحثين والمتقنين.

تنوع المادة المعرفية في المتن ودلالاتها الوظيفية:

ومن الركائز المنهجية البارزة في الكتاب، عدم جمود المؤلف عند قالب البلدانيات الصريف؛ بل اتسم منهجه بتنوع المعلومات وضح مواد معرفية متعددة المشارب داخل المادة الجغرافية والتاريخية الواحدة الغالبة بالمعجم. فقد احتوى المعجم على الكثير من المعلومات الاجتماعية ترصد أنساب القبائل، والأسر وتراجم الاعلام من العلماء والمشاهير وغير ذلك، ويبرز هذا المنهج على سبيل المثال أثناء حديثه على مدينة زليتن⁴¹، فضلاً عن إشارات أدبية وثقافية ثرية من خلال الاستشهاد بعيون الشعر العربي والمنظومات الشعبية، وربما إيراد بعض الأمثال السائرة والقصص والمآثر المأثورة.

ولم يكن هذا التنوع المعرفي ترفاً استطرادياً، بل كان منهجاً مقصوداً وواعياً يحمل دلالات وظيفية حاسمة تخدم النص؛ فإما أن يُستدعى الخبر والأثر ليؤرخ لحدث أو واقعة جرت في الموضع، أو ليدرس طبيعة المكان ومعالمه الجغرافية والبيئية، أو ليثبت اسماً ودلالة أنثروبولوجية تربط الموضع بإنسانيته وحضارته، مما جعل المتن حيويًا ومفتوحاً على شتى حقول الاستنتاج.

ويتجلى هذا المنهج القائم على تنوع المادة المعرفية وتوظيفها وظيفياً على سبيل المثال لا الحصر في استشهاد الشيخ الطاهر الزاوي بقصيدة ديسان⁴² إبان حديثه المعجمي عن جبل ديسان ومحيطه؛ حيث لم يكن إيراد المؤلف لهذه القصيدة مجرد ترف أدبي، بل جاءت الأبيات كوثيقة ثلاثية الأبعاد: تُعرّف المكان، وتؤرخ للحدث، وتصف الكارثة الإنسانية. فقد صوّرت القصيدة مأساة اجتماعية وتاريخية عصفت بالمنطقة، متمثلة في وباء وفد على المكان وفككاً ذريعاً بسكانه من أسرة الجبالي المستقرة بجوار هذا الجبل، فكانت الأبيات بمثابة مرثية حزينة تُسجل ملامح تلك الحقبة وما خلفه المرض من هلاك ودثور للأنفس⁴³.

وتكتسب هذه المادة الأدبية والتاريخية في المعجم قيمة نقدية مضاعفة؛ كون الشيخ الطاهر الزاوي يُعد على الأرجح أول من قام بجمع هذه القصيدة التاريخية وكتابتها، وإصلاح ما طرأ على أبياتها، فرمم بنيتها الشعرية والتوثيقية وحفظها من الاندثار داخل متن معجمه. ومن ثم، فإن هذا الشاهد يبرز للقارئ والباحث كيف تحولت المادة الأدبية عند الزاوي من مجرد نظم شعري إلى أداة جغرافية وتاريخية حية؛ حددت تضاريس جبل ديسان مكاناً، وأرّخت للوباء حدثاً ومأساة، وخلدت سيرة الإنسان الليبي وتحولاته الاجتماعية تحت وطأة الظروف الطبيعية والبيئية القاسية.

وإلى جانب الشواهد الشعرية الفصيحة، وردت في المُصنّف نماذج من الشعر الشعبي، كحديث المؤلف عن قصر الخفاجي بأرض برقّة، بما يعكس اهتمامه بتوثيق الموروث الشعبي بوصفه مصدراً مساعداً في رصد الموروث التاريخي المتناقل شفاهة بين سكان المناطق⁴⁴.

خامساً: أهمية معجم البلدان الليبي في دراسة تاريخ ليبيا الإسلامي:

يُعد معجم البلدان الليبي للشيخ الطاهر الزاوي بمثابة الكنز المعرفي والوثيقة الوصفية للمواقع التي لا يستغني عنها أي قارئ أو باحث أو طالب متخصص في التراث التاريخ الليبي؛ إذ تكمن قيمته العلمية في كونه يمثل الجسر المعرفي الرابط بين جغرافية المكان الصامتة وحركة الإنسان عبر الزمن.

وتتجلى أهمية المعجم لدارسي التاريخ الليبي بصفته العامة في قدرته على تقديم خلفية مكانية محققة وثرية تخدم البحث التاريخي في شتى الحقب والعصور المتعاقبة على هذه الأرض؛ فالمؤلف يمنح الباحث أداة مرجعية حاسمة لإعادة بناء الأحداث التاريخية، وتتبع حركة الجغرافيا المكانية، ورصد معالم الاستقرار السكاني، وتوثيق جغرافية المدن والقرى وغيرها على أساس طبوغرافي صلب، مما يفك انغلاق النصوص ويصل ما انقطع من حوادث التاريخ على هذه الأرض بأسلوب موسوعي يجمع شتات المعطيات المتناثرة.

41- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 170 - 171.

42- لمزيد من التفاصيل عن القصيدة وقائلها ينظر: إبراهيم رحومة الصاري 1918- 1972م ترجمته ونتاجه الأدبي، جمع وترتيب وتقديم: محمد إبراهيم الصاري، ط1، 2017م، ص 174 وما بعدها.

43- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 135 - 138.

44- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 273.

وفي ذلك يقول الدكتور محمد مسعود جبران⁴⁵ : " وأحسب أن التأليف الذي سبق به الشيخ الطاهر الزاوي، ولم يكن لغيره من الليبيين فيه مؤلف هو كتابه معجم البلدان الليبية الذي عرّف فيه على طريقة ياقوت الحموي بالمدن والقرى في ليبيا تعريفاً مختصراً أرخ خلاله للمشهور منها، وذكر الوديان والجبال والزوايا والمساجد والمدارس والأبراج والعيون الجارية ذات الشهرة، مع التماس الأصل اللغوي لبعض الألفاظ الواردة "

وفي هذا الإطار العام؛ يجد الباحث في تاريخ ليبيا الإسلامي في هذا المعجم مادة استكشافية غنية و شذرات معلوماتية مفتوحة تفيده في تحقيق وفحص الكثير من القضايا والمسائل؛ فالشيخ الطاهر الزاوي وإن لم يقصد وضع مدونة تخصصية مغلقة بسياقات شرح تاريخي متصل، إلا أنه وقّر إشارات مرنة تفتح آفاقاً استنتاجية واسعة أمام الباحثين. وتنبئ أولى تلك المفاتيح العلمية التي تخدم الباحث في رصد وثوقية المعجم للفترة الإسلامية عند مراجعة وفحص قائمة المصادر والمراجع التي انتكأ عليها المؤلف؛ حيث يلاحظ أن جزءاً كبيراً منها هي أمهات كتب أصيلة صنفها كبار الجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين، وهي مصادر صبّت مادتها التراثية في جوهر المعجم، فجاءت معلوماته امتداداً طبيعياً يخدم تلك الحقبة الممتدة طوال الفترة الإسلامية.

وتتجلى هذه الأهمية مثلاً في توفير مادة وصفية للمواقع والأمكنة، لدارسي الفترة الإسلامية المبكرة للبلدان الليبية؛ من خلال تتبع خط سير الجيوش الفاتحة، وقيام وسقوط الممالك وتحديد مسارات الثورات و الوقائع في أقاليم طرابلس و فزان وبرقة، ويبدو هذا الأثر واضحاً في ضبط المعجم لبعض الوقائع التاريخية الشاهدة على التحولات السياسية؛ ومنها على سبيل المثال تحقيقه لموضع (ورداسا) الذي شهد معركة فاصلة عام 144هـ بين البربر برياسة أبي الخطاب وبين العرب برياسة محمد بن الأشعث الخزاعي؛ إذ أشار الزاوي مسترشداً بسير الشماخي (ت : 928هـ / 1522م) وغيره أن يرفع الغموض عن هذا الموقع الجغرافي وأن يحدد مكانه غرب تاورغا⁴⁶، كما أشار إلى أماكن بعض الأعلام من الصحابة والتابعين والعلماء وتحديد أماكن دفنهم ومقابرهم؛ كإشارته للصحابي الجليل ربيعة بن ثابت الأنصاري في مدينة البيضاء⁴⁷، والصحابة في درنة⁴⁸، مما يمنح المؤرخ إشارات مكانية حية .

إلى جانب ذلك يقدم المعجم إشارات تاريخية لدارسي التاريخ الاجتماعي والسكاني في الفترة الإسلامية؛ حيث اعتنى الشيخ بذكر القبائل البربرية والعربية، متتبعاً مواطن سكنائها، وحركتها واستقرارها، وبعض عاداتها، وذلك خلال حديثه عن البلدان والمواقع، مما يساعد في فهم الخارطة السكانية وتطورها خلال العصور الإسلامية كإشارته لقبية هؤارة البربرية وبعض بطونها من خلال تحديد مواطن انتشارها واستقرارها⁴⁹، وإشارته للأحامد أثناء حديثه عن ساحل الأحامد⁵⁰، وكذلك على سبيل المثال رصده لمواطن استقرار بعض الأسر العلمية كأسرة الفطيسي التي عادت واستقرت في موطن أجدادها الأوائل بقرية أرذو بزلتين، حيث زاوية المشايخ الستة المشهورة التي تضم مدفن أسلافهم، وذلك عقب الوباء الذي أصاب المنطقة عام (1252هـ)⁵¹، أيضاً حديثه باختصار عن الطوارق وبعض عاداتهم⁵² ... الأمر الذي يجعل من المعجم وثيقة اجتماعية ترسم ملامح الهوية السكانية في الفضاء الليبي .

ويتكامل هذا البعد الاجتماعي مع توثيق المعجم الدقيق للمعالم الحضارية والمنشآت العمرانية والمباني الأثرية الإسلامية؛ فالشيخ الزاوي يشير إلى القصور، والقلاع، كحديثه عن تاريخ السرايا الحمراء بطرابلس، كذلك إشارته لموقع قصر حسان التي بناها حسان بن النعمان قرب سرت في الفترة ما بين (80 - 84هـ)، وإشارته لموقع قصر المعز في إجدابيا الذي شُيد في عهد الخليفة الفاطمي المعز عام (362هـ)⁵³، وقصر قراقش (قَرَقَاش)⁵⁴، وذلك عقب استيلاء قراقش على طرابلس في النصف الثاني من القرن السادس الهجري⁵⁵، مما يتيح مادة خصبة لربط بقايا هذه المباني بحركة الدول والولاة ومراكز القوة وتجمع السكان .

وينسحب الأمر ذاته على المساجد والمدارس والزوايا، كحديثه عن جامع الناقة⁵⁶، وتوثيقه للمدرسة المنتصرية بطرابلس التي أسست بين سنتي (555-558هـ) في العهد الموحد، مستعرضاً دورها التعليمي⁵⁷ وغيرها من المؤسسات الدينية والتعليمية، مما يتيح مادة مفتوحة لاستقراء مراكز الإشعاع الفكري الإسلامي.

45- محمد مسعود جبران، الشيخ الطاهر الزاوي، ص62.

46- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 351. للمزيد ينظر: أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس - ليبيا، د. ت، ص 53 وما بعدها.

47- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 73،

48- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 130 - 131.

49- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 352 - 353، 356 - 357.

50- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 179.

51- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 22 - 23.

52- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 241.

53- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 277.

54- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 264.

55- لمزيد من التفاصيل ينظر: محمد بن خليل بن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تصحيح وتعليق: الشيخ الطاهر الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004م، ص 99 وما بعدها.

56- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 95.

57- الطاهر الزاوي، معجم البلدان، ص 304 - 305.

ويُمثل المعجم أيضاً مصدراً مهماً لدراسة التاريخ الاقتصادي في ليبيا، بما يتيح من إشارات متفرقة إلى أنماط النشاط الاقتصادي، وحركة التبادل التجاري، وتوزيع المراكز العمرانية، فضلاً عن المعطيات المرتبطة بالحياة المعيشية للسكان، إذ تُسهم هذه المادة، وإن وردت في سياقات متباينة، في تكوين صورة عامة عن البنية الاقتصادية ومظاهر النشاط التجاري التي شهدتها البلاد عبر مراحلها التاريخية المختلفة.

الخاتمة:

أثبتت الدراسة أن هذا المعجم يُعد المصنّف الأول من نوعه في التدوين التاريخي الجغرافي الليبي؛ إذ تميز بتفرد كامل في أهمية معلوماته وطريقة عرضها المنهجية، محققاً ريادة علمية لم يسبقه إليها أحد في المكتبة الوطنية، ولم يُنسج على منوالها من بعده.

بينت الدراسة أن المادة التاريخية عنصر أساسي في معجم الشيخ الزاوي؛ حيث تميزت بكثرتها وامتدادها عبر مختلف العصور، مما جعل المعجم دليلاً حضارياً متحركاً يربط بين جغرافية المكان وحوادث التاريخ. أفصحت الدراسة عن أن منهجية المؤلف لم تقتصر على سرد الأحداث ونقل الأخبار؛ بل كان يعتمد إلى نقد الروايات التاريخية، وتحليلها، ومقارنتها بالواقع المعاش، وبالمصادر الأخرى للوصول إلى الحقيقة العلمية. أوضحت الدراسة دور المعجم في حفظ وتوثيق المعالم العمرانية والحضارية في تاريخ ليبيا؛ إذ غني الشيخ بذكر تفاصيل المدن، والأسوار، والقلاع، والحصون، والمساجد، والمدارس، والزوايا، والآبار... مع وصف أشكالها وتحديد تواريخ بنائها.

كشفت الدراسة عن الأهمية الإستراتيجية لمعجم البلدان الليبية بوصفه وثيقة جغرافية وتاريخية هامة في دراسة تاريخ ليبيا الإسلامي، إذ تكمن قيمته العلمية في توطيد الحوادث التاريخية ميدانياً، ورفع الغموض المكاني عن مسارح الأحداث، فضلاً عن رصده لمواطن القبائل، والامتداد الجغرافي لحركة قيام ونفوذ وسقوط الممالك و الإمارات عبر الأقاليم الليبية.

التوصيات:

توصي الدراسة الباحثين بضرورة إجراء المزيد من الدراسات والأبحاث المعمقة حول معجم البلدان الليبية والتوسع في إنتاج معاجم مشابهة، مع التأكيد على أهمية الانتباه لشدة الارتباط بين المصادر التاريخية والجغرافية في مثل هذه الأعمال وعدم الاختصار على فن واحد؛ لأن هذه النظرة التكاملية تمنح الباحث رؤية أوسع وتساعد على تفسير الأحداث التاريخية تفسيراً علمياً صحيحاً.

مصادر البحث ومراجعة:

1. أحمد زاوي، رشيد مياد. الطاهر الزاوي وإسهاماته في كتابة تاريخ طرابلس الغرب، " مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج 17، عدد: خاص، جانفي 2022 م.
2. أحمد بن الحسين النائب الانصاري (1336هـ/1918م). المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس - ليبيا، د. ت.
3. جمعة محمود الزريقي. جهود اللجنة الطرابلسية في مصر من خلال المجاهدين الفيتوري عمر السويحلي والطاهر أحمد الزاوي، مجلة الشهيد، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، العدد: 34، 2013 م.
4. سمير عبد الرسول العبيدي. الطاهر أحمد الزاوي (1890 - 1986م) شيخ المؤرخين الليبيين، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد: 35، 2011 م.
5. الطاهر أحمد الزاوي (ت: 1986 م). معجم البلدان، ط1، منشورات دار مكتبة النور، طرابلس_ ليبيا، 1968م. جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط 4، دار المدار الإسلامي، بيروت، 1004 م
6. عز الدين عبد السلام العالم. دور الشيخ الطاهر الزاوي في النشاطات السياسية الوطنية وصداها في آثاره العلمية 1911 - 1986 م، مجلة البحوث التاريخية، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، المجلد: 35، العدد: 2، 2013 م.
7. ابن غلبون، محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي (ت: 1150هـ/ 1737م تقريباً). التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تصحيح وتعليق: الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004م.
8. محمد إبراهيم الصاري. إبراهيم رحومة الصاري 1918-1972م ترجمته ونتاجه الأدبي، جمع وترتيب وتقديم: محمد إبراهيم الصاري، ط1، 2017م.
9. محمد مسعود جبران (ت: 2019م). الشيخ الطاهر الزاوي ترجمته وآثاره، البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، العدد: 38، 1988 م.
10. مصطفى حامد أرحومة. أثر كتابات الزاوي في المهاجرين الليبيين إلى تونس ودورهم في حركة المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي لليبيا 1011-1932 م، مجلة الشهيد، العدد: 22، 23، 2002م.